إعداد : محمد التميمي mohammadaltamimi@hotmail.com

هيدغر واللاهوت المسيحي

بقلم : د .صفاء عبد السلام جعفر

يبدو أن تقسيم فلاسفة الوجود إلى جناح مؤمن و جناح ملحد ، كما دأب الفكر العربي المعاصر على ذلك ، مسألة غير دقيقة ، و تتسم بتسرع و تبسيط مفرطين ، كما أنه يغفل حقيقة هامة ، و هي أن علاقة الفيلسوف بالدين تنطوي على " مفارقة " إلى أقصى حد .

ولذلك لا يمكننا اعتبار هيدغر ممثلا للجانب الإلحادي في فلسفة الوجود للأسباب التالية :

١ - أننا لو أمعنا النظر في فلسفة الوجود عن هيدغر للمسنا تأثير التصورات الدينية عليها : فيذكرنا وصفه الإنسان بأنه الموجود المهتم بوجوده ، وكلامه عن الهم ، وحرصه على تحقيق الوجود الحقيقي بما تسعى إليه الأديان ، كما أن في تحليلاته للذنب والضمير أصداء بعيدة من الخطيئة الأولى .

فمن المعروف أن هيدغر ، قد انحدر من أسرة كاثوليكية ، ونشأ على تعاليم الدين المسيحي الكاثوليكي ، ودرس في شبابه في مدرسة كونستانس Konstanz ، وهي مدرسة كاثوليكية تقع في منطقة انتشر فيها تأثير الكاثوليكية والبروتستانتية إلى حد بعيد ، ولا يخفى في فلسفته تأثير هذه النشأة الدينية .

ومن المعروف أيضا أنه انضم بعد سنوات الدراسة إلى معهد (الجزويت) في بلدة فلدكيرش ، ثم التحق بجامعة فرايبورج لدراسة الثيولوجيا لعدد من الفصول الدراسية ، وأن كلا من النشأة الدينية ، والميل إلى الفلسفة قد تركا أثرا قويا على حياة هيدغر المبكرة ، كما أنه لم يغلق باب الحوار بينه وبين رجال اللاهوت المسيحي الذين أفادوا من كثير من جوانب فلسفته .

٢- كما أننا نلمس في فلسفته تأثير الأفلاطونية المحدثة ، وأوغسطين ، و باسكال ، و كيركجور... مما يكشف في موقفه عن الوجود عناصر من النزعة الصوفية والجمالية لا يمكن إنكارها ، ونلمح أثر هذه النزعة الصوفية في حديثه عن " الزمانية " في مرحلة تفكيره المتطور كما جاء في الفصل السادس .

٣- أن هيدغر نفسه يرفض أن توصف فلسفته بالإلحاد ، فيصرح في بعض أحاديثه " بأن فكره يهيئ "بعد القداسة " الذي يجب أن يسبق كل حديث عن الله أو الدين" .

ويقول اتهامه بالإلحاد يهمل من حيث المبدأ العبارة التالية التي تقرأ منذ عام 1929 م في مقاله عن " ماهية السبب " جاء فيها :

" إن التفسير الأنطولوجي للآنية بوصفها وجودا -في- العالم لا يحسم بمعنى سلبي ولا بمعنى إيجابي أن يكون الإنسان على صلة بالله أو متجها إليه ، ولا مفر أولا من الوصول إلى تصور كاف عن الآنية عن طريق توضيح معنى العلو- " وهذا ما فعله في **الوجود والزمان** -ثم عن طريق هذا التصور يمكننا أن نضع السؤال الأنطولوجي عن طبيعة العلاقة بين الآنية والإله[1] " .

ويمكن تفسير هذا النص كما يلي :

أ- أننا لكي نحل مشكلة الصلة بالله ينبغي أولا أن نسمع ، وأن نفهم ، ابتداء من حقيقة الوجود ، لأن الوجود هو مصير الفكر ، وماهية ما هو مقدس ، وأن نفهم ابتداء من هذه الماهية الألوهية التي نستطيع بفعلها أن نحدد مضمون فكرة الإله .

ب- أن هيدغر ليس منكرا للإلوهية ، لأن فلسفة الوجود تتطور في انطولوجيا توحي بإمكانيات جديدة لفكرة الإله ، وربما كانت هذه الإمكانيات أكثر تطورا من مفهوم الإلوهية التقليدي ، وهو في ذلك يذكرنا بالإله الذي تحدث عنه ماسيتر إيكهارت (28/1327-1260) ، وميزه عن المعبود ، أو يذكرنا بالإله الذي يجاوز كل تأليه عند بول تيليسن (1886-) من متصوفة الألمان .

وبذلك يمكن الذهاب إلى أن كتابات هيدغر عن الوجود إنما هي محاولة غير صريحة للبحث عن الله ، وتعبير " مقنع " عن الإيمان بوجود الله ، وأن تعبيراته الغامضة الصعبة تخفي وراءها نفس المواقف القديمة إزاء الدين ، وأمثلة ذلك واضحة في حديثه عن التصميم ومعناه الديني : التصميم لأداء العمل الصالح وإرادة ذلك ، وهو عنده التصميم لتحقيق المشروع ، والضمير في الدين هو الطريق إلى تجنب المعصية ويعبر عن النفس اللوامة ، أما عند هيدغر إسراع لتحقيق الإمكانات ، والأبدية في الدين تحولت إلى زمانية انبثاقية للآنية- في- العالم .

ج- إذا كان تفكير هيدغر يبدو بعيدا عن الثيولوجيا في **الوجود والزمان** فإن ذلك لا يعني تحوله إلى الإلحاد ، ويذكرنا ذلك بموقف كانط في **نقد العقل النظري** عندما استبعد " مؤقتا " البحث في الدين والميتافيزيقا دون أن يكون ملحدا [2] .

د- يقصد هيدغر " بالتصور الكافي للآنية " الأفق الانبثاقي المتعالي للوجود بما هو كذلك ، فابتداء من حقيقة الوجود يبدأ التفكير في ماهية المقدس Das Wesen des Heilige، و ابتداء من ماهية المقدس نفكر في ماهية الألوهية ، وفي ضوئهما يمكننا أن نعبر عن معنى كلمة الإله .

ويمكن القول بأن تفكير هيدغر في هذا السياق ينقسم إلى تفكير في" المقدس " Das Heilige ، وفي " الألوهية Die Gottheit " ، و" الإله أو الآلهة Der Gott oer die Gotter " ، و ملتقى هذه التقسيمات هو " الحقيقة بوصفها إنارة للوجود" .

كما أن العلاقة بين الإنسان و الإله عند هيدغر لا تقوم على أساس أن الإنسان " حيوان مفكر " و إنما بوصفه وجودا ماهويا ينتمي إلى الوجود بمعنى " الحادث " كما سبق أن رأينا .

ويلاحظ أن سؤال هيدغر عن " المقدس والإلوهية و الإله " في نطاق إنارة الوجود إنما هو تعبير عن فكرته عن " قرب الإله وغيابه " : فالإنسان قد بعد عن الوجود ، واستغرق في نسيان ماهيته ، وهو عندما يتحرك صوب بعد "مقدس" يحتاج إلى حقيقة الوجود ، لأنه لا يتضح إلا من خلالها ، أي أن التفكير في إنارة الوجود يمهد للمدخل الممكن للمقدس من خلال " نور الوجود " .

ومن ناحية أخرى ، تناول هيدغر مفهومي الغربة Heimatlosigkeit ، "والإلف أو السكن" من خلال " أعمال هيلدرلين" التي تجيب على الأسئلة التي تركها هيدغر معلقة في Heimat الانطولوجيا ، فالغربة تعبر عن موقف الإنسان الحديث في بعده عن الوجود ، والسكن تعبير عن وقوفه بالقرب من الوجود ، ففي الغربة نسيان الموجودات للوجود ، واحتجاب للحقيقة ، فيصبح الموجود مجرد شيء وسط الأشياء ، وينتمي إلى عالم يغيب عنه بعد القداسة ، و التغلب على هذه الغربة يبدأ بالوجود عندما يستنير من جديد ، ونعرفه في ضوء الحقيقة .

يتضح من ذلك أن "المقدس" هو المعنى الذي يتجسد فيه بعد الألوهية والإله ، وأن " الفرق الأنطولوجي " بين الوجود يناظره " فرق ثيولوجي " آخر يفيد أن الإله ليس موجودا ، وليس هو الوجود ذاته ، وأنه يختلف عن الوجود بمعنى الحادث ، وأنه في مجال حقيقة الوجود يظهر في صورة الحادث [3].

٤- إن فلسفة هيدغر بحث تاريخي عن الوجود ، وهو بحث ديني بصفة أساسية ، يقول هيدغر : " علينا أن نفكر في اللغة ابتداء من الوجود" .

أ- أن " الوجود ليس هو الله " لأن الوجود ليس حقيقة لا زمانية ، بل هو معنى التاريخ كما رأينا ، وأن الوجود ليس ذاتا ، ولا موضوعا ، ولا شخصا، ولا شيئا ، بل هو انفتاح محض وعلاقة محضة ، وخارج علاقته بالإنسان لا يوجد شيء .

ب- أن اللغة تعبر عن وجود الله بالسلب ، فالإله ليس العلة الأولى وإلا كان مجانسا للموجودات التي يخلقها ، واللاهوت بدفاعه عن الله العلة قد أسهم في مجيء إله الفلاسفة .

ج- أن الوجود لا يتصور من حيث الفاعلية بل من حيث الحضور والمحايثة .

د- أن مهمة الفكر واللاهوت هي التحرر من صورة إله الفلاسفة ابتغاء الاقتراب من الله الحقيقي بمساءلة الموجود .

هـ - أن الله ليس هو القيمة " وهو التصور الذي ساد الفلسفة الغربية منذ عهد أفلاطون إلى نيتشه " .

و- أن الله لم يمت ، وأن إلوهيته تحيى ، وهي أقرب إلى " الفكر " منها إلى الإيمان ، وتتلقى أصلها من حقيقة الوجود .

ز- أن الله ليس شخصا ، وإلا طبقنا على فكرة الله مقولة وجودية لا ترد إلا في الأنثروبولوجيا .

والنتيجة هي أن الله -عند هيدغر- ليس وجودا من الموجودات ، ولا علة أولى ، ولا شخصا ووجوده يعبر عن رفض كل تبرير وبرهان [4].

ه- لهيدغر عبارة بالغة الأهمية في هذا السياق ، جاء فيها : " إله واحد فقط بوسعه أن ينقذنا [5] " ويمكن تفسير هذه العبارة كما يلي :

أ- الانطولوجيا الأساسية في **الوجود والزمان** تكشف عن " ثيولوجيا " تتضح -مثلا- في أن " السقوط " يصف الحركة نحو عالم الأشياء والأدوات ، والانغماس فيه بحيث يصبح الفعل(retten ينقذ) الوارد في العبارة السابقة تعبيرا عن الحركة في اتجاه معاكس ، كما أن الوجود الحقيقي هو " إمكان الوجود " ، و كلمة إمكان تعبر بإيجابية عن الفرق بين الوجود والموجود ، و " التفكير " يدعم هذا الفرق بين الممكن والواقع ، ويمثل توتر الوجود في مقابل الموجود .

ب- أنه ثمة تناظرا بين الفرق الثيولوجي بين الله والموجودات -فبدون الاختلاف الإلهي لن يكون للموجودات معنى- وبين الفرق الأنطولوجي عند هيدغر بين الموجود والوجود ، وهذا الفرق يؤسس جميع الاختلافات في الموجودات ، كما أن هذا الفرق في حالة الوجود الحقيقي لا يتحقق إلا بوجود الإله .

نستنتج من ذلك أن معنى الوجود عند هيدغر متعلق " بالإله " ، وأن الانطولوجيا عنده ليست مؤسسة على اللاهوت منذ البدء حتى لا تندرج تحت الميتافيزيقا التقليدية التي تخلط -في رأيه- بين الوجود والموجود .

فالثيولوجيا كامنة في انطولوجيا هيدغر ، ومعنى الوجود تابع لفكرة الإله ، ومن خلالها يصحح فكرة " الخلاص " أو " النجاة " ، علما بأن الوجود لا يحقق لنا النجاة ، وإنما الوجود والموجود يتحقق لهما النجاة بفضل الإله .

ويلاحظ أن هيدغر قد استخدم كلمة " الإله " بصورة معرفة وغير معرفة ، ومفردة ، وجمعا لينوه بذلك استخدامه الجديد للكلمة الذي يتجاوز به "الصنم الميتافيزيقي" القديم ، ويجرده من أشكاله الشكلية مع الإبقاء على معنى "تفرد القداسة " .

كما يلاحظ أن معنى اللاهوت يستقر عنده في نظريته عن التصميم وهو هدف التفكير ، وفي كل خطوة من الطريق يتجدد هذا الهدف ؛ ذلك أن الثيولوجيا عنده ثيولوجيا الفعل لا النظرية .

ج- تدلنا العبارة أيضا على أن " النجاة " تتحقق لنا بالتفكير الخالص ، وليس التفكير في إله بالضرورة ، و ذلك لأن التفكير هو دوما بفضل الإله ، و ليس بالضرورة تفكيرا في الإله ، و يعبر عن مغزى طريق التفكير الطويل عند هيدغر .

والتفكير عنده هو الفعل المزدوج للوجود من جهة ، والإنسان من جهة أخرى ، ويعبر الجانب الإنساني من التفكير عن تلق خالص ، " فنحن لا نسعى إلى التفكير ، و إنما يأتي إلينا التفكير " ، فالتفكير " تجربة أو اختيار لهبة الوجود " ، وهو اختبار من الإله للوجود الإنساني .

د- كما تدلنا على أن كلمة " الوجود " هي التي تبين موضع الخلط في التراث الميتافيزيقي بين الوجود والموجود ، وذلك هو " السقوط " في مفهوم هيدغر ، والحركة المضادة لذلك السقوط أسماها هيدغر -كما ورد في العبارة- " بالنجاة "، والفعل (retten ينقذ) هنا يشير إلى تجاوز وهم

الوجود مدركا بوصفه واقعا وإلى حقيقة الوجود بوصفها تفكيرا ، والإله يسمح لنا بهذا التفكير ، كما أن تجربة التفكير الحقيقية تعد شرطا يمكننا من ملاقاة الإله ، وهذه الثيولوجيا لا تنفصل عن طبيعتنا الإنسانية المتمثلة في الفعل لا النظرية أو السعي إلى الوجود الحقيقي ، وفيها نتحرر عن طريق الإله . و" السؤال عن الإله " لن نفهمه قط إلا من خلال " السؤال الهيرمينوطيقي عن معنى الوجود " ، بذلك وحده يمكننا فهم الوجود .

هيدغر -إذن- ثيولوجي من حيث المبدأ والمنتهى ، ويمكن تفسير ماهية المسيحية بعد أن أعاد تعريفها بأنها "حرية التفكير " ، ويقول هيدغر في كتابه **الطريق إلى اللغة** " : Unterwegs zur Sprache بدون الملاذ اللاهوتي لم أكن الأصل إلى طريق التفكير " .

" فالنجاة" الواردة في العبرة السابقة هي " السماح بالتفكير " ، وهي ليست نجاة من حالة راهنة بقدر ما هي نجاة من حالة مستمرة ، فنحن أبدا في حاجة إلى إله كي نتمكن من التفكير ؛ فالتفكير مهمة تجاوز الطبيعة الإنسانية ، بل هو خاصية تميز الوجود -أو بالأحرى- هو علاقة الوجود بالموجود الإنساني. يتضح من ذلك أن التفكير هبة الوجود الذي يمكنه أن ينقذ الآنية من الانزلاق مع الموجود ، وعلينا أن نشعر بالعرفان لهذه الهبة [(6)] .

٦- فسر هيدغر " شعر هيلدرلين وغيره " في مرحلة فكره المتطور تفسيرا يدعم ما سبق أن توصلنا إليه : يقول هيدغر في أحد تفسيراته " لهيلدرلين " أو "شاعر المستقبل" كما يراه : " إن زماننا هو زمان الحاجة ، لأنه يقع تحت تأثير نوعين من السلب ، فلم يعد يوجد آلهة كما قال نيتشه ، ولما يأت بعد الإله الجديد ، وإن الافتقار الشديد إلى الإله إنما هو بوح ووعد " .

ويقصد هيدغر بذلك أن العصر الذي لم تعد فيه آلهة هو العصر الذي ألغي فيه معنى السؤال عن الوجود ، وأنه لا مفر من البحث عن معناه ، ولا يمكن الوصول إلى هذا المعنى " تماما " لأنه بعيد إلى أقصى حد ، وهذا الطريق إليه هو طريق عثورنا على هويتنا ، و به نتصل بذواتنا وننفتح على الوجود ، ونحتفظ بقربنا منه . ويمكننا " بالتفكير " " و الشعر " أن نستعد لظهور الإله أو أفوله ، ونحن الآن نحيا عصر غياب الآلهة ، ونحن لا يمكننا أن نفكر في الإله ؛ بل يمكننا على الأكثر أن نستعد لانتظاره ، وأن نوقظ في أنفسنا الاستعداد لهذا الانتظار .

ذهب هيدغر في مرحلة تفكيره المتطور إلى أنه عن طريق التحول عن الثيولوجيا بمعناها التقليدي السائد في الميتافيزيقا و الانطولوجيا يبدأ البعد الديني لديه في الظهور ، وأنه استخدم لذلك لغة خاصة فسر بها فكر "نيتشه " من جهة ، وشعر " هيلدرلين " من جهة أخرى .

" فأما عن نيتشه " ، فيرى أن فكرة إعادة تقويم كل القيم أو انقلاب القيم عند نيتشه ليست سوى فهم سطحي لمقصود نيتشه ، وأن الأهم من ذلك هو " الإنسان بوصفه مشرعا للقيم Wertung aller ومبدعا إياها " ؛ فما فهمه نيتشه على أنه " العدمية الأوروبية المقبلة " ، لم يفهمه هيدغر بوصفه Werte فقدان القيم لمعناها ، وإنما بوصفه نهاية لائحة القيم القديمة ، وأطلق على ذلك مصطلح " نسيان الوجود " .

و" أما عن هيلدرلين " ، فقد أعاد هيدغر اكتشافه من جديد ، فإذا كان آخر الآلهة في العالم القديم عند هيلدرلين هو الإله المسيحي ، ونحن الآن نحيا عصر غياب الآلهة ، فإن الوجود عند هيدغر أصبح أكثر من مجرد حضور ، إنما بالأحرى " غياب " ، " لأن الطبيعة تحب أن تختفي " كما يقول هيرقليطس ، ولا يخفى أن هذه العبارة تدعونا إلى الانتظار ، كما دعانا إليه هيلدرلين .

لذا تحدث هيدغر عن " التفكير فيما هو آت " ، وهذا التفكير نتركه يتسلل إلينا كما يتسلل اللص خفية في ظلام .

و لم يعد هذا التفكير انطولوجيا ولا ثيولوجيا بالمعنى التقليدي ؛ فهو إذ يفسر هيلدرلين يرى أن السؤال " من هو الإله ؟ Wer ist Gott "من أصعب الأسئلة ، لأننا لا نستطيع أن نصل إلى الإله بسبب طريقتنا القاصرة في الحديث عنه ، ويمكننا أن نتساءل فقط " ما هو الإله ؟ Wer ist Gott " مما يشير إلى بعد القداسة و القدس في تفكيره المتطور ، يقول بهذا الصدد :

" ضياع بعد القداسة و المقدس هو الآفة الحقيقية لعصرنا [7] " .

كتب هيدغر في خطاب شخصي إلى كارل لوفيت Karl Lowith أحد مريديه وأصدقائه في عام 1921 ما يلي :

" لعل من أفدح الأخطاء أنك وبيكر Becker قد جعلتماني أسوة بفلاسفة من أمثال نيتشه و كيركجور وغيرهما.. ويمكنني القول بأنني لست فيلسوفا ، بل إنه لا وجه للمقارنة بيني وبينهما لأنني ثيولوجي مسيحي " Ich bin ein Christlichertheologe " .

ويشير ما ورد في هذا الخطاب الهام إلى ما يلي :

الدافع العميق المحرك لهيدغر في طريقه الفكري هو " الثيولوجيا " : فهو يعتبر نفسه ثيولوجيا مسيحيا ، ويعني ذلك أن جميع الأسئلة التي طرحها تهدف إلى التحرر من الثيولوجيا بمعناها التقليدي التي نشأ عليها ، وذلك كي يمكنه أن يكون مسيحيا بحق ، فهو يريد أن يتخذ مهمة جديدة للاهوت في مقابل

المسيحية اللاهوتية السائدة ، ولقد ساعده على ذلك -على حد قوله- ما تعلمه من مذاهب في كلية اللاهوت بجامعة فرايبورج .

وهذه المهمة الجديدة تتلخص في " الدعوة إلى الإيمان وحمايته [8] " وهذه العبارة سمعها "جادامر" في عام1923 م في حوار مع هيدغر عن الثيولوجيا بوصفها مهمة للتفكير ، وتبين له أن الآنية الوقائعية المهمومة بإشكال الوجود في البداية الصحيحة لتحقيق هذه المهمة ، فهي الموجود "السائل" عن معنى الوجود .

صفوة القول : إن " السؤال عن الوجود " الذي جاهد هيدغر دوما في سبيل إثارته ، ومحاولة الإجابة عليه ليس في النهاية وفي صورته الجديدة سوى" السؤال الإله [9] " .

الهوامش

1- Cp. Heidegger, M. : « The Essence of Reason », Abilingual ed. In Corporating the German Text Von Wesen des Grundes, Tra, s. by Terrence, T. Malick, Northwedtern iniversity Press, U.S.A, 1969, P.91.

2- Cp. Hermann, Fr.W. Von. : Proseminar über (Sein und Zeit), Protokooll der I.Sitzung am 18-10-1990 Von A.Stutzer, S.7.

3- Cp. Hermann, F.W. Von. : Das Heilige, Die Gottheit und der Gott im Seinsgeschichtlichen Denken Heideggers, Freiburg I.Br., 1990, S.8-10.

٤- قارن: عبد الرحمن بدوي :الموسوعة الفلسفية، ص.608-709

5- Nur noch cin Gott Kann uns retten.

6- Cp. Crettela, Henri, “la Théologie de Heidegger”, in Heideggers Studies Dunker Humbolt, Berlinvoll.5, 1990, PP.11-25.

7- Zum Glauben zu rufen und Glauben zu bewähren.

8- Cp. Gadamer, Hans Georg; “Die religiese Dimension” 1981 in “Heidegger’s Zegz” – Studien zum Spätwerk, J.C.B mohr (Paul Siebeck), Tübingen, 1983, SS.140-151.

نقلاً عن موقع (الجمعية الفلسفية المغربية)

www.philosophiemaroc.org

مع تحيات : **محمد التميمي**

mohammadaltamimi@hotmail.com